

أنتجتها المنظمات غير الحكومية من غير أن يتأكد من صدقيتها، نذكر، على سبيل المثال، أن عدد

المنظمات غير الحكومية خُفّض إلى النصف بعيد تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية، وهي بيانات

باتت موضع شك لدى بعض البحوث الأكثر جدية.

ساري حنفي  
أستاذ مشارك  
في علم الاجتماع في  
الجامعة الأميركية في بيروت

## كتب بالفرنسية

## القاموس العاشق لفلسطين

### Dictionnaire Amoureux de la Palestine

Elias Sanbar\*  
Dessins d'Alain Bouldouyre  
Paris: Plon, 2010. 481 pages.

ومرايا بلاده الساطعة الحضور على الرغم من غيابها.

### القاموس كفعل مضاد

#### للنفي

يعبر اختيار صنبر للقاموس كشكل للكتابة عن محاولة لاسترجاع الجغرافيا المصادرة والمستبدلة أسماؤها بالتأريخ والكلمات. ولذلك، يأتي عمله كفعل نفي للنفي، أو كفعل مضاد للتغيب، كي يعيد انطلاقاً من أبجديته رسم خريطة لفلسطين، استثنائية كونها تتخطى مكانيتها، وعادية كونها، أصلاً، ملكاً لأناس عاديين بنى الحاليون منهم ذواتهم بعيداً عنها، في مناف أخذوا من كل منها شيئاً أضافوه إلى زادهم ووعيتهم وحياتهم ورغباتهم وموتهم وذاكراتهم المتناقلة. ولعل "الدرشة" بين الكاتب وصديقه الشاعر محمود درويش التي يستهل

الياس صنبر من حروف قاموسه:

### ينسج

"القاموس العاشق لفلسطين"، عدة أبجديات: أبجدية للغياب والذاكرة؛ أبجدية للصدقة؛ أبجدية للمكان وقصصه وفنونه وسيرة أهله أفراداً

وجماعات؛ فيأتي كتابه انتقاءً لنتف من تاريخ نجد فيه وطناً وقضايا وأصدقاء وضحاً وشعراً وفقداناً وهجرات. تاريخ هو أشبه بالمرايا، مرايا الكاتب الفرد وأمزجته وثنايا ثقافته ولغته،

(\* مؤرخ وكاتب ومترجم وسفير فلسطين في الأونيسكو.

والكاتب يهدي كتابه هذا إلى صديقيه دانيال وصوفي بن سعيد. رحل دانيال في ١٢ كانون الثاني/يناير ٢٠١٠، وهو المفكر التروتسكي والكاتب المتخصص بوالتر بنجامين وكارل ماركس، وأحد وجوه ثورة ٦٨ الطلابية في باريس، وأحد قادة الأهمية الرابعة. أما صوفي فهي رفيقة دانيال وقرينته الناشطة معه في أكثر الميادين.

ويندرج الكتاب - القاموس ضمن سلسلة "قواميس عاشقة" التي تصدرها دار "بلون"، وهي تتناول مدناً وبلاداً وفنوناً ونبيذاً، وتزيدها جميعاً أغلفة ورسوم داخلية للفنان ألان بولدوير.

Darwich، محمود درويش. فبعد B التي تتكرر لاحقاً في P (سنتوقف عندها)، و C وما فيها من صيادين (Chasseurs) ومن طرائد، من ثقافة (Culture) ومن أرقام وصراع على الديموغرافيا (Chiffres) ومن مستعمرات تلتهم الأرض وتقطع أوصالها (Colonies)، يأتي الشاعر (الذي ترجم صنبر أبرز دواوينه إلى الفرنسية) كي يحتل فضاء الحرف. يأتي درويش بصفته طروادياً كما كان يحب أن يُسمى، بصفته لغة "وبوصفه ما أرادت الكلمات أن يكون: جسداً لطابعها البريدي"، ويظهر كتقاطع بين الشعر الكلاسيكي والحادثة، بين الحصار والسعة التي تضيق بها الأرض، والأهم ربما بين الشعر وفلسطين. فهو شاعر وفلسطيني أو شاعر من فلسطين وليس شاعراً فلسطينياً كما يسهل تعريفه، إذ إن الشعر لا يحتاج إلى هوية أو جواز سفر لوصفه أو تحديده.

في حرف E، نجد الدولة (État)، والصدى (Échos) والنبي الياس (Elias-le-prophète) وقصصاً من الطفولة والأعياد ووجوه عائلة صنبر. ثم نصل إلى الالتزام (Engagement) وانتساب الكاتب إلى حركة "فتح" - "وجود الناس فيها"، عوضاً عن الانتساب إلى القوى الفلسطينية التقدمية الأقرب إليه فكراً.

أما في حرف F، فنقع على مزيج من سوسولوجيا الانتماء الديني وطقوسه وطرفه (Fils des voisins)

عبارة "أخيرة"، أي (Dernière) ليقول - كما قال عدة مرات في السابق! - إنها ربما تكون المرة الأخيرة التي يكرس فيها مؤلفاً كاملاً لفلسطين، ثم يعود ويختتم قاموسه أيضاً بحرف D (كعود على بدء) مخصصاً إياه للفيلسوف الفرنسي جيل دولوز (Deleuze) الذي علمه قيمة الحركة وأهمية تحويل النقطة إلى سطر، والفرادة إلى تنوع، والذي أقنعه بأن الترحال يزيد المرء غنى ثقافياً وتوهجاً.

### كُتِبَ الحروف

تنساب حروف القاموس وموضوعاته جامعة نصوصاً من مختلف مساحات الحياة. تفتح الألف (A) آفاق الغياب (Absence) والنفي والمنفى والعودة، وتعرّج على الصداقة (Amitié) وأصدقاء العمر الأحياء والراحلين، قبل أن تعود إلى علم الآثار (Archéologie)، وإلى الرقاعة الإسرائيلية التي تربط التنقيب تحت الأرض بـ "تنقيب آخر في السماء" لإثبات مشروعية وجود فوق التراب، وإلحاق "الميتافيزيقياً" بعد الأساطير في صراع سياسي يريد الاستناد إلى أقدمية تاريخية لنفي الحاضر؛ نفي لا يرى فيه المفكران بيار فيدال ناكيه ومكسيم رودنسون (الذان يرافقان صنبر في أكثر من حرف في قاموسه) إلا خرافة وتهافت منطوق.

ثم تعود D من جديد، في سياقها الفعلي هذه المرة كي تقدّم

بها صنبر قاموسه تشي بكثير مما أراد قوله في صفحاته مزاجية بين استثناء وعادة: - "ماذا سنفعل، أنت وأنا، عندما نصبح في سن الشيخوخة؟" - "سنجلس تحت شجرة تين، في باحة منزل في فلسطين." - "يجيب الناس عن هذا السؤال عادة مشيرين إلى نشاط، إلى اهتمام، أما أنت، فتشير إلى مكان. أقول: ماذا سنفعل؟ فنتسمع: أين سنكون؟..."

- "هذا صحيح. لكن يمكن أن أقول لك أيضاً، إننا سنتفق مستقبلاً على قاعدة: ألا نتبادل أي أحاديث غير عادية. أن نكتفي بالتحدث عن الطقس وعن الغيوم العابرة." كما أن سؤال ابنة صنبر المفاجئ له قبل أعوام، وهي في السابعة، يكمل المعنى المنبثق من "الدردشة" مع درويش. تسأله البنية: "هل ستُضَيِّعُ عمرك كله في الحديث عن فلسطين؟" فيذكره استفهامها (الاستنكاري أو النقدي) بأهمية التعبير الواضح عما تنأزَعُ ميوله على مدى أعوام التزامه السياسي: التصاق بقضية ورثها واختارها، وتحرُّرٌ منها نحو فضاء أرحب لا يبقيه - على الرغم من تمسكه بها - حبس تراجيديتها، ولا يجعله باحثاً (عبرها) عن بطولة أو فعل ملحمي أو دور يتخطى أدوار الناس "العاديين" الذين يسعى للعيش مثلهم.

لهذا، يبدأ صنبر أبجديته بحرف D، مقدماً إياه على حرف A، منتقياً

عن يسوع الناصري، والبحث في الأصوليات (Fundamentalismes)، ثم تنتقل إلى الحدود وجوازات السفر (Frontières et passeports)، وما يفضي إليه أمرهما من تعريج على قضايا اللاجئين وتأشيراتهم وصعوبة تنقلهم، وما يُفرض عليهم من أوراق ومعاملات وإجراءات (لا شك في أن لبنان هو الأكثر تضيقاً فيها عليهم).

بعد ذلك، يخصص صنبر حرف G للكاتب الفرنسي جان جينيه (Genet). سخرية وقسوة وعمق ويبحث عن مكان وعن أناس خارج الزمن "معلقين بحبال الهواء"، ودرس في الأدب والكتابة، هي كلها إرث جينيه الذي يوجزه الكاتب بحنان ودقة، كي ينتقل بعدها إلى حرف H حيث تطلّ حيفا مدينته، بلده وبلاده، أو أجمل مدينة في العالم وفقاً لأهله وأقاربه... ثم يأتي التاريخ (Histoire) والصراع فيه وبشأنه، يليه حرف ا، وفيه الصور (Images) والسينمائي الفرنسي - السويسري جان لوك غودار الذي انطبعت علاقته بالضوء وبالحركة والموسيقى والمونتاج بعقل صنبر (الشغوف بفن التصوير وجمع الصور).\* وفي حرف ا أيضاً، يتوقف القاموس عند Intifada، وعند قوة انتفاضة ١٩٨٧ وأثرها العميق في مسار الصراع مع الاحتلال من الداخل.

في حرف ل، تطلّ القدس (Jerusalem) عاصمة الصراع وعاصمة حلّه. يزورها القاموس العاشق بصفتها مدينة الرمزيات، ومدينة الزمن الطويل والصبر والأحلام، وبصفتها مدينة قابلة ليس للتقسيم فحسب، بل للتقاسم كعاصمة لدولتين فلسطينية وإسرائيلية أيضاً. يقفز القاموس بعد ذلك عن حرفين، ليحطّ رحاله في حرف M، مثل مآكل وفن الطبخ (Manger. Art) وها هنا يستعيد صنبر أطقمة وحلويات فلسطينية، ويستعير ثقافة فاروق مردم بك صديقه الحميم ("شريكه" في العديد من المؤلفات والمشاكل - آخرها كتابهما البديع بالفرنسية "أن تكون عربياً") كي يقدم وصفات ومقادير للأطعمة المنتقاة. وفي حرف الميم أيضاً، كلمتان - مفتاحان: Mur أو جدار، و-Musée Nostalgie أو متحف - حنين (وفولكلور). تشرح الكلمة الأولى معنى جدار الفصل الذي وُلدت فكرته مع إيهود باراك في سنة ٢٠٠٠، وأنشئ على مراحل مستمرة مصادراً أكثر من ٩٪ من أراضي الضفة الغربية والقدس الشرقية بموجب قرارات عسكرية، مصيباً السكان الفلسطينيين بأضرار فادحة في حياتهم اليومية وحركتهم وأملاكهم، بينما تشرح الكلمة

الثانية، وفيها استذكار لكتابات وأبحاث ومراسلات، التمييز الضروري الذي يريده صنبر بين الفولكلور والتبارز مع إسرائيل لإثبات القَدَم وفداحة المعاناة من جهة، وبين التأريخ الرصين والبحث العلمي من جهة ثانية. كما تُجري الكلمة أيضاً مقارنة جميلة (وحزينة) بين منزل فرويد في فيينا (المتحول متحفاً، وقد هجره فرويد إلى لندن وهرب أثنائه بعد صعود النازية)، وما يمكن أن يكون عليه متحف للنكبة في فلسطين: شعور بالفقدان والغياب والنفي وصور تستبدل الأغراض والأماكن (والأشخاص) ولا تولد غير الفراغ والصمت.

حرف النون N يحمل Négociier أي "أن تتفاوض". والكلمة هنا فعل وليست اسماً ولا حتى مصدراً، وهي بهذا تشير إلى التفاوض الفلسطيني (مع الإسرائيليين) بصفته فعلاً أو عملاً سياسياً قائماً في ذاته كموضوع لقاموس فلسطيني. فهو شهد اعترافاً إسرائيلياً وأميركياً ودولياً غير مسبوق بفلسطين والفلسطينيين، وبمنظمة التحرير ناطقة باسمهم. وهذا الاعتراف، بعد مسيرة عقود من النضال والمقاومة، بمعزل لاحقاً عن مضامين الاتفاقات وما عابها، وبمعزل عن الثمالة التي أصابت المفاوضات الفلسطينيين في إثر الاعتراف بمشروعيتهم وتمثليتهم، هو من أهم ما حققته القضية الفلسطينية في الأعوام العشرين الماضية، وهو

(\* أصدر الياس صنبر كتاباً مصوراً عنوانه: Les Palestiniens: La photographie d'une terre et de son peuple de 1839 à nos jours (Paris: Hazan, 2004).

للأمر شأن أقل طرافة أمام  
القانونيين ومحاكمهم...

### مجلة الدراسات

الفلسطينية، إدوارد سعيد،  
الخيار: الحياة والموت

تبرز الأحرف من R حتى V،  
مروراً بـ S و T أسماء وتواريخ  
وقضايا. أبرز الأسماء Said، إدوارد  
سعيد الذي يتذكر صنبر زيارته له  
في حياته النيويوركية، في شغفه  
بالموسيقى، في ثقافته الرفيعة،  
وفي حدته السياسية المفضية إلى  
قطيعة في الصداقة بينه وبين كثر  
من أترابه وأحبابه، وبينهم صنبر  
نفسه، نتيجة تصاعد نقد سعيد  
لياسر عرفات وتعميمه النقد هذا  
على جميع من بقي إلى جانبه أو  
مؤيداً له.

أبرز الأسماء أيضاً، مجلة  
الدراسات الفلسطينية (Revue  
d'Études Palestiniennes) التي  
مثّلت في صيغتها الفرنسية منبراً  
فكرياً أولاً، وفلسطينياً ثانياً،  
وعاشت على مدى ٣٢,٠٠٠ صفحة  
مدخلة فلسطين إلى قلب المشهد  
الثقافي الفرنسي، ومستضيفة أسماء  
لامعة، فنجحت منذ انطلاقتها حتى  
انطفائها المؤسف قبل أعوام، في  
تغيير نمطية النظرة إلى  
الفلسطينيين وقضيتهم.  
أما الاسم العلم الأهم في  
القاموس، أو على الأقل الأشد تأثيراً  
في الواقع السياسي الذي لا ينفصل  
القاموس العاشق عنه، فهو اسم

المقولة الوجودية الشيكسبيرية في  
قالب طريف للغاية. وفحوى الأمر  
هو أن لغزاً ما يجعل حرف P ممتنعاً  
عن ألسن الفلسطينيين، فيحيلونه  
على الدوام باءً. هكذا، تظهر بعض  
الملصقات بالفرنسية أو الإنجليزية  
وقد كتبت عليها: Long live  
Balestine، أو Vive la Balestine.  
وهكذا أيضاً تتعرض أحرف لغتين  
فرنسية وإنجليزية وكلماتهما  
لـ "اعتداءات" طريفة، تصل حتى إلى  
صوغ معادلات رياضية تستبدل  
بعض قواعد النطق. فعلى اعتبار أن  
حرف الفاء (في فلسطين) يتحول  
إلى باء في الفرنسية والإنجليزية،  
يقدر بعض الفلسطينيين أن الفاء  
في الفرنسية يمكن أن تصير باءً في  
العربية، فيصبح برج إيفل مثلاً برج  
إيبيل، وتصبح غاليري لافاييت  
محلات لاباييت.

أما الأطراف فهو جواب أحد كبار  
المسؤولين الفلسطينيين عن سؤال  
طرحه عليه صديق لبناني عن  
أسباب عجزه عن التمييز بين B و P،  
إذ جاء على النحو التالي:

Ya akhi i know the difference  
but i don't know where to "but" it  
(يا أخي أعرف الفارق، لكنني لا  
أعرف أين "أضعه").

هذا الفارق هو ما لم تعرف إدارة  
الإذاعة الفلسطينية وضعه في  
المكان السليم حيث سمّت نفسها  
BBC أو Balestine Broadcasting  
Corporation. ولولا أن البي. بي.  
سي. في لندن فهمت على الأرجح أن  
حرف الباء "ضرب من جديد"، لكان

ما يبقى اليوم من مسار السلام  
المترواح أو الميت الذي قضى عليه  
المستوطنون والمستعمرات.  
يظهر حرف O بعد هذا التقديم  
"الدوني" له، ليشرح معنى "منظمة  
التحرير الفلسطينية" (PLO): منظمة  
هي منذ صعود ياسر عرفات  
وصحبه في سنة ١٩٦٨ بمثابة  
الأرض للفلسطينيين التي تجمع  
تنوعهم وتناقضاتهم كافة، وهي  
على هذا الأساس صنوا اسم علمهم  
وصنوا استقلالهم في صراعها مع  
إسرائيل، ومع العديد من الأنظمة  
والحكومات العربية. على أنها بعد  
عودة قياداتها إلى الضفة وغزة في  
سنة ١٩٩٤، صارت، علاوة على  
ماهيتها الأساسية، شيئاً آخر.  
صارت سلطة وصارت جهازاً  
وصارت تماساً مع أبناء رقعة  
جغرافية يختلفون في سيرتهم  
ومسيرتهم وعلاقاتهم وتحولاتهم  
عن أبناء الشتات المبعثرين في  
الدول والمتصلين بمختلف  
مجتمعاتها، الذين شكّلوا المنظمة  
وعاشوا فيها. بهذا المعنى صارت  
المنظمة في العقدين المنصرمين  
شيئاً يصعب معرفة مآله، لكنه يذكّر  
على نحو ما بما قاله محمود  
درويش ذات مرة: "ما أكبر الفكرة،  
ما أصغر الدولة."

P أو B، أو P: هذا

### هو السؤال

في فقرتين لحرفين يتماهيان  
فلسطينياً، يطرح الياس صنبر

الختيار (Le Vieux)، أو أبو عمار، أو ياسر عرفات، أو الرئيس، أو السيد فلسطين (Mr. Palestine)، ذلك بأنه يندر أن يلتصق اسم شخص باسم قضية أو باسم بلد كما التصق اسم عرفات باسم فلسطين: من استعادة الهوية الوطنية عبر "فتح" ومنظمة التحرير، إلى القتال حفاظاً على القرار المستقل، إلى صناعة الرموز في الصراع مع إسرائيل وبناء الشخصية الفلسطينية بالجهد والتضحية والتنوع والتسامح الديني، إلى انتزاع الاعتراف بعد طول تيه وحصارات، وصولاً إلى العودة وبناء الدولة - على أخطائها ووهنها - وانتهاء بالحصار في رام الله والمواجهة، ثم الموت التراجمي في المنفى الاستشفائي البرائسي. لقد مثل ياسر عرفات في سيرته ملحمة الشعب الفلسطيني، فتفنّس فلسطين في شتاته، وانغرس فيها بعد عودته، ومات لأجلها في نفيه الثاني.

### العزف ضد الفرقة

قلت في بداية هذه القراءة إن في القاموس مرايا للكاتب، والأدق ربما أن القاموس هذا هو مرآة للكاتب تعكس تعدد ملامح وجهه وقدرة كل ملمح على التحول وجهاً في ذاته. فصيغة القاموس والقدرة من خلاله على تنويع الموضوعات والأساليب والتنقل وتحويل النقاط إلى أسطر، على ما كان دولوز يردد، أتاحت لالياس صنبر فرصة التعرض لأفراد وأماكن وأحداث ومقولات

وأفكار يشدها جميعاً خيط إلى مكان أو زمان أو مشاعر، أو إلى المكان والزمان والمشاعر مجتمعة، كما أتاحت له أن يكتب تاريخاً موازياً لفلسطين، لا يشبه السير الرسمية، ولا يهجس بالصراع بشأن الأحقية، وإنما يقدم حكايا إنسانية تصلح لأن تكون حكايا لأناس بمعزل عما يجمعهم، وهذا ما يدخلها - من دون التخلي عن كثافة رمزها - إلى أفق أوسع هو الأفق الإنساني؛ أفق يمتد من بحر حيفا حيث فقد ذاك المؤرخ أوراقه وعمل أعوامه الطويلة بعد أن ألزم ثقل المركب الحامل أكثر من طاقاته منفيين عن بيوتهم في سنة ١٩٤٨ الركاب برمي حاجياتهم، فامتزج حبر تاريخه وعرق قلمه بملح الأمواج، إلى بيروت فباريس ونيويورك وفيينا، فرام الله وغزة، كي يلامس من بعدها المعاني النبيلة للالتزام والمقاومة والإبداع والحرية، وهي معانٍ تجمع أسماء من عوالم الشعر والأدب والفلسفة والفنون واللغة من جميع أنحاء العالم، ومعانٍ تمنع "القضية" من أن تتحول إلى سجن للعقل والإرادة والرغبة في الضحك وفي الحياة. علاوة على ذلك، يقدم القاموس، ومن خلال الأمثلة الفلسطينية، درساً في العنف: في آلياته ولغته وانتقاله تناسلاً بلسان الجلادين من مرجعية إلى أخرى (حال جنود إسرائيليين يشتمون بالألمانية تقليداً لما سمعوه في أفلام أو نقلاً عن أهلهم، وحال فلسطينيين

يضربون ويشتمون مواطنهم بالعبرية، وحال مهاجرين جدد من روسيا يهجون الشيشانيين ويذكرون غروزني عند معبر للاحتلال في الضفة). والقاموس أخيراً هو قصة للصدقة، قصة تجمع فاروق مردم بك إلى ليلي شهيد وإيلان هليفي ومحمود درويش وآخرين يذكروهم الياس صنبر، أو يشير إليهم. وهو في ذلك كله، من استنكاره طفولته وشبابه الأول في لبنان، إلى مزاولته التنس والبولو، ثم اختياره الالتزام السياسي من دون التنازل عن حقوق الضحك والقراءة وحب الفنون وجماليات الحياة، وكذلك عرضه وجوه عائلته و"قومه"، وصولاً إلى باريس، منفاها المتكسر اختياراً، وما بناه فيه من علاقات، يسافر عبر أمكنة سمع عنها صغيراً ثم زارها "كبيراً"، وأزمنة اختار البحث فيها مؤرخاً، كي يبقى وفيماً لمبدأ "العزف ضد الفرقة ومعها"، العزف معها بصفته واحداً منها، من أدائها ونبضها، والعزف ضدها لرفضه التماهي الكلي معها كي لا يفقد "المسافة"، وكي يبقى فرداً: مسافة النقد أو فردانية العزف، تماماً كما كان مايلاز دايفيس يفعل في عزفه مواجهاً فرقة تاركا الجمهور لا يرى غير ظهره وموسيقاه.

زياد ماجد

كاتب لبناني مقيم في باريس